

ماستر: تاريخ الهجرات والتحركات السكانية بالحوض الأبيض المتوسط

السداسي الثاني

وحدة:

الهجرات الحديثة والمعاصرة بين المشرق العربي والبلدان المغاربية

د. جمال حيمر



السنة الجامعية: 2019 - 2020

تقديم:

تضرب العلاقات المغربية مع شبه الجزيرة العربية في أعماق التاريخ، وقد زادت هذه العلاقات مكانة منذ القرن الثامن عشر ميلادي (12هـ) واستمرت في تطورها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

اتخذت أواصر الاتصال ما بين البلدين عدة أشكال، كان في مقدمتها ركب الحاج المغربي الى الديار المقدسة كل سنة خاصة تلك الركاب التي كان يشرف على تهيئتها الملوك العلويين الذين غالبا ما كانوا يرسلون معها أبناءهم وأكبر شخصيات المخزن والدولة المغربية من الأعيان والعلماء، ويرفقونها بهدايا ثمينة نقدية وعينية لشرفاء مكة المكرمة والمدينة المنورة وقرائها نظرا للمحبة التي كان المغاربة يكونونها لتلك البقاع المقدسة ولساكنيها، ولم يقتصر الأمر على هذه العطايا والهبات السنوية بل هناك أحباس متعددة هامة حبسها المغاربة على الحرمين الشريفين، كان يدفع ريعها سنويا الى من أوقفت عليهم، ولم تنقطع هذه الظاهرة الا مع احتلال القوات الفرنسية والاسبانية والدولية للمغرب. بل والأكثر مما سبق ذكره أن المغرب كانت تربطه مع أمراء الجزيرة العربية الى نهاية القرن 18م روابط مصاهرة زادت من تثمين هذه الروابط مما كان وراء تثمين العروة الوثقى بين القطرين.

والواقع أن ركب الحاج المغربي الذي كان يجمع مختلف الشرائح الاجتماعية ومنها العلماء والأدباء والكتاب بدأ بشكل منظم إبان الدولة الموحدية خلال الثلث الثاني من القرن السابع الهجري (13م)، ومع أحد ركابات المغاربة خلال هذا القرن عاد جد الدولة العلوية الحالية.

كان المثقفون المرافقون لهذه الركابات يكتبون مشاهداتهم أثناء ذهابهم وإيابهم، وبذلك خلفوا لنا مادة علمية تجمع بين التاريخ والجغرافيا والسوسولوجيا والاقتصاد والثقافة وغيرها من المعلومات المهمة التي تكاد هذه الرحلات تنفرد بها، ومن ذلك ما يهيم شبه الجزيرة العربية التي وصفوا جغرافيتها وحياة السكان بها وصفا دقيقا لا يكاد يوجد في مصنفات أخرى. وقد أفاض المغاربة في تحليلاتهم وتعاليقهم نظرا لحبهم لهذه البقاع المقدسة دون إغفال الظواهر التي استرعت انتباههم ولم يستحسنوها. كما أن غير المغاربة خاصة المصريين تطرقوا في رحلاتهم الى شخصيات مغربية بارزة زارت الحجاز، دون أن يثيبهم ذلك عن الحديث عن شبه الجزيرة العربية من الناحية الطبيعية أو البشرية أو الاقتصادية.

أولاً: أهمية الرحلات في كتابة التاريخ المغربي الحجازي

تعتبر الرحلة من أهم الفنون الأدبية التي تمتن الاتصال بين الشعوب والتفاعل بين الحضارات وما ينجم عن ذلك من تلاحق فكري وخدمات اقتصادية واجتماعية. كما تبقى الرحلة مصدراً مهماً للتعرف على البلدان والخصائص البشرية، ومن خلالها يكتشف الإنسان العالم فهي تجمع ما بين التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاثنوغرافيا أي الدراسات الوضعية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد بما في ذلك العادات والقيم والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة خلال فترة زمنية محددة¹.

وبالرغم من كون فن الرحلات من الأنواع الأدبية الطريفة، فإنها فضلاً عن ذلك مفيدة في ميدان التاريخ ويمكن نعتها بأنها من المصادر الدفينة أي تلك التي تتضمن معلومات في شتى التخصصات، وتنفرد بتفاصيل قلما نجدها في المصادر الموضوعية التي اهتم أصحابها خصيصاً بالتاريخ، وهذا ما أشار إليه السيد محي الدين الخطيب في مقدمة رحلة لأحد المعاصرين من أهل القدس قد كان لكثير من الكتب القديمة التي ألفت في الرحلة مزية قلما نجدها في المؤلفات الحديثة، وهي أن المؤلف كان يترك القلم يرسم ما في نفس صاحبه بعيداً عن التصنع، فإذا قرأ الناس كتاب رحلة شعروا بأنهم معه يرون ما يراه ويقفون على وقع ذلك في نفسه².

وينطبق هذا بالضبط على المغاربة الذين اعتنوا بهذا الجنس الأدبي، فعن طريقهم كان باقي الناس يعرفون الكثير من التفاصيل عن الحجاز وخاصة الحرمين الشريفين ومدن ومراكز أخرى فضلاً عن معرفتهم بالمناطق التي كان يمر عليها ركب الحاج المغربي من المغرب الى شبه الجزيرة العربية. ف"الرحلة تعتبر في عداد النفائس التي تعطي فكرة جد واضحة على تعلق بلاد المغرب بقبلتهم في المشرق مما قد يفسر القولة السائدة في المغرب مكة في الشرق ورجالها في الغرب"³.

لقد تفوق المغاربة في أدب الرحلة منذ القرون الوسطى، ونذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر ابن بطوطة الطنجي صاحب الرحلة المشهورة، ومحمد العبدري الذي تنتسب رحلته إليه، المسماة بالرحلة المغربية وغيرها كثير. "تكاثرت الرحلات المغربية في العصر الإسلامي وتنوعت موضوعاً وشكلاً وحجماً وأسلوباً، واحتلت الرحلات الحجازية من بينها مكاناً سامياً لشرف موضوعها المتعلق بالبقاع

¹ للمزيد من التفاصيل عن موضوع الرحلات وأهميتها يستحسن الرجوع الى:

حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد 138، شوال 1409 يونيو 1989 نازك سابيارد، الصراع الفكري والحضاري في أدب بعض الرحلات العرب، الكر العربي، العدد 51، السنة التاسعة، يونيو 1988، ص. 25-09

² محمد بن عثمان المكناسي، الأوسير في فكاك الأسير، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، مطبعة أكدال، الرباط 1965

³ عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس 1143هـ/1731م أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاق، مطبعة فضالة، د.ت ص. 11

المقدسة وأداء مناسك خامس أركان الاسلام⁴. ويرجع إقبال المغاربة على الأسفار واهتمامهم بتدوين مشاهداتهم لأسباب عدة من بينها بعد المغرب عن المشرق وبالأخص الحجاز مهد الحضارة العربية الإسلامية ومهبط الوحي، مما جعل الحنين إليها كل وقت وحين خاصة أثناء الحج. كما ان للمغاربة ولع بالسياحة خارج بلادهم للتعرف على باقي أصقاع المعمور، زد على ذلك العلاقات التي كانت تربط حكاهم بالخارج مما حتم إرسال سفراء من قبل الملوك لدول عديدة، أسفرت بعض هذه السفارات عن تدوين أصحابها لمهامهم، دون إغفال عن مرافقة الكتاب والمتقنين للملوك أو من ينوب عنهم في الأسفار وتكليفهم بإنجاز كتب حول هذه الرحلات، وكان طلب العلم من بين أهم أسباب الهجرة والترحال وكتابة مذكرات هؤلاء الرحالة. وعلى العموم تعددت دوافع هذه الرحلات ولكن الهدف واحد هو التعرف على الأقطار المزارة من قبل الرحالة⁵ ابتداء من القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م) على عصر الدولتين الموحدية والمرينية. وأخذت الرحلات المغربية الى الديار المقدسة القسط الأكبر من سجلات الرحلات، وهي تضم ثروة من المعلومات عن البقاع خلال مختلف العصور⁶. ومعلوم أن نشر هذه الرحلات بدأ مع دخول الطباعة الحجرية الى المغرب سنة 1287هـ/1864م في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان (1859هـ/1873م).

ثانياً: العلاقات المغربية مع شبه الجزيرة العربية

اتخذت هذه العلاقات أوجها متعددة في مقدمتها توجه المغاربة الى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج كل سنة بشكل منتظم سواء تعلق الأمر بالركب الرسمي الذي كانت تشرف عليه الدولة أو بصفة شخصية تهم بعض الأفراد.

وارتبطت المغاربة خاصة الحكام منهم بالحرمين الشريفين عن طريق ما كانوا يحبسونه عليها من عقارات وأراضي في المغرب، يرسل مدخولها كل سنة الى أهل هذه الديار ليصرف فيما حبس عليه. وتوطدت هذه العلاقات في نهاية القرن 18 م بالمصاهرة التي ربطت وفتنذ مع أمير مكة المكرمة.

ركب الحاج المغربي⁷ ورحلات المغاربة الى الشرق:

⁴ محمد حجي، تقديم الرحلة الميسرة للبقاع المقدسة المطهرة لأداء مناسك الحج والعمرة للكاتب الأديب محمد العرائشي، رحلة حجازية عام 1391هـ/1972م مرقونة
⁵ قسم محمد الفاسي نوع الرحلة الى خمسة عشر قسماً في تقديمه لكتاب الأكسير في فكاك الأسير لمؤلفه محمد بن عثمان المكناسي، ومنها الرحلات الحجازية والرحلات الرسمية والسفارية والرحلات الدراسية الدليلية والرحلات الاكتشافية والرحلات الأثرية....
⁶ رحلات مغربية الى الديار المقدسة الحجازية، الأسبوع الثقافي المغربي بالملكة العربية السعودية 16-17 جمادى الأولى 1399هـ/14-25 أبريل 1979، مطبعة فضالة العجدة، تقديم حبيبة البورقادي، ص.04
⁷ يرجع في هذا الموضوع الى الكتاب القيم الذي ألف محمد المنوني تحت عنوان: ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن، تطوان 1953

أسس هذا الركب الإمام أبي محمد صالح الماجري (توفي عام 631هـ/1233م) أواسط عصر الدولة الموحدية، وكان أول ركب الركب العالمي نسبة الى صاحبه، خرج من آسفي مسقط رأس مؤسسه متوجها الى الحجاز.

أنشأ أبو محمد صالح رباطات عديدة لنزول الحجاج المغاربة في ذهابهم وإيابهم على طول الطريق التي كان يمر منها الركب من المغرب الى شبه الجزيرة العربية، وتعددت فيما بعد ركاب الحاج المغربي فوصل عددها الى خمس وهي:

- الركب السجلماسي نسبة الى سجلماسة بوابة تافيلالت مهد الدولة العلوية
- الركب الفاسي نسبة الى مدينة فاس
- الركب المراكشي نسبة الى مدينة مراكش
- الركب الشنقيطي نسبة الى منطقة شنقيط في أقصى جنوب المغرب (موريطانيا الحالية)
- الركب البحري

وأهم هذه الركاب ذلك الذي كان يخرج من فاس عاصمة الدولة المغربية سياسيا – لعدة قرون- أو ثقافيا لأنها تعرف بالعاصمة العلمية، وقد خرج هذا الركب لأول مرة في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني عام 703هـ/1303م معوضا بذلك الركب الصالحي فأصبح هذا الركب المغربي الرسمي.

كان السلاطين المغاربة يقدمون إعانات مادية لهذا الركب والصلوات نفسها قدمها الموسرون المغاربة للأنفاق على المستضعفين من الحجاج، كما كان يضم بالإضافة الى من لهم الاستطاعة لأداء مناسك الحج شخصيات مرموقة في المجتمع المغربي تشكل الهيئة العليا للركب، وهي: الرئيس وهو شيخ الركب أو أمره يختار من علية القوم، والقاضي والقائد ثم حامية للحراسة وأعيان البلد⁸.

زاد اهتمام المسؤولين والملوك المغاربة بركب الحاج المغربي من بداية عصر الدولة العلوية خلال القرن 11هـ/17م، ويرجع اهتمام الملوك العلويين بالحجاج المغاربة الى تعلقهم كباقي السكان بالبقاع المقدسة ومحبتهم للرسول ﷺ والتشوق الى زيارة قبره، وبالتالي أداء مناسك الحج التي دأب سكان المغرب عليها منذ انتشار الاسلام في بلادهم.

ويضاف الى ذلك أن الجد الأعلى للدولة العلوية يرجع أصله الى شبه الجزيرة العربية من أرض الحجاز الذي دخل الى المغرب في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (13م) وعمره ستون سنة إبان حكم السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني⁹.

⁸ انظر التفاصيل في كتاب محمد المنوني السابق الذكر، ص.12-13
⁹ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، دار الكتاب، الدار البيضاء 1956، ص.04-05

كان سبب مجيء المولى حسن الى المغرب هو ركب الحاج المغربي السجلماسي الذي اقترح عليه قاده العوده معهم نظرا لخلو بلدهم من أي شريف، فطلبوا من المولى قاسم بن محمد المتصل بنسبه لعلي وفاطمة بنت الرسول ﷺ أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة، فاختار ابنه حسن الذي أصبح يعرف بالداخل. ومن التاريخ المذكور لم تنقطع صلة المغاربة ببلاد الحجاز سواء منهم الحجاج أو الطلبة الراغبين في المزيد من التحصيل الثقافي أو العلماء المشاركين، وجميعهم نهضوا بدور التبادل الثقافي بين البلدين¹⁰. وغالبا ما كان الحجاج المثقفون يكتبون رحلاتهم ويسجلون فيها انطباعاتهم عن الديار المقدسة ومشاهداتهم المتعددة سواء تعلق الأمر بالأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية فضلا عن التعريف بمراحل الطريق وطبيعتها. شهد القرن 11هـ-17م وما تلاه من القرون 18 و19 و20م عدة ركابات للحج المغربي تحت إشراف الملوك أسفرت عن تأليف عدة رحلات.

ترأس هذا الركب في عصر الدولة السعودية أحد مشايخ التصوف، وهذا من علامات نفوذ أصحاب الزوايا اذالك، لأن العادة جرت بأن يترأس الركب القواد والأمناء وأكابر الدولة، وقدم القائد جوهر هدية للسلطان السعودي الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور الذهبي، وهي عبارة عن مسكتان أي شمعدان وزن كل واحد منها أربعة أرطال من الذهب ومسكتان من فضة خالصة وزن كل واحدة منها عشرة أرطال وصندوقان مملوءان شمع العنبر، وعشرة آلاف من الذهب المطبوع¹¹، وضعت كل هذه الهدايا داخل الروضة، ودفع المال لحراس من الروضة وسدنتها.

كان بعض المغاربة يرحلون الى الحجاز سواء لأداء فريضة الحج أو طلب العلم والمعرفة واشباع فضولهم الفكري، وكان بعض الحجاج المثقفين يكتبون رحلاتهم، ونذكر من بين هؤلاء أبي سالم العياشي الذي رحل الى المشرق ثلاث مرات سنوات 1059هـ/1649م و 1064هـ/1653م و 1072هـ/1661م، والهدف من الرحلة الثالثة إضافة الى أداء مناسك الحج كتابة رحلته ماء الموائد التي عرفت "بالرحلة العياشية"¹² جعل منها سجل معلوماته، ومرآة ثقافته وعنوان صلته بأعلام الأقطار التي زارها¹³، وتعتبر هذه الرحلة شبه معلمة عن كل ما رأى فيه العياشي فائدة لنفسه وللقرءاء.

وتسهيلا لمأمورية الحجاج عكف الملوك العلويون على تزويد الركابات بما هو ضروري من المؤن والعتاد الحربي، بل إن المولى الرشيد (1666-1672) أمر لحفر آبار في طريق الحجيج سميت بأبار السلطان، كانت تسقى منها قوافل الحجاج على طول الطريق المؤدية الى الحجاز.

¹⁰ عباس الجراري، مدخل لرحلة الحضكي الحجازية ضمن الأسبوع الثقافي المغربي بالمملكة العربية السعودية، أبريل 1979، ص.09، الهامش

06

¹¹ محمد بن أحمد السراج ابن مليح القيسي، أنس الساري والسارب، رحلة حجازية، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس 1970، ص.103

¹² سهر محمد حجي على طبعها ثانية مصورة بالأوفسبب في جزأين ووضع فهارسها، الرباط، 1397هـ/1977م

¹³ عبد القادر زمامة، مع أبي سالم العياشي في رحلته الى المشرق، مجلة المناهل، العدد 27، 10 يوليوز 1983، ص.158

وهناك رحلة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، والمقصود بذلك رحلة أبي الحسن اليوسي الذي حج سنة 1101هـ/1689م رفقة والده الذي صاحب الأمير المعتصم بن المولى اسماعيل والأميرة ست الملك. ووجه المولى اسماعيل مع ابنه الأمير المعتصم هدايا للبيت الحرام المكرم والروضة النبوية الشريفة، وصلات نسبة للعلماء والفقراء واليتامى¹⁴. وكانت هذه الهدايا تعرف بالصرة المغربية دأب المغاربة على إرسالها إلى أهل الحرمين الشريفين منذ القرن 10هـ-16م.

وبعث المولى اسماعيل ابنه الأمير أبي مروان في ركب سنة 1223هـ/1711م لأن عادة الملوك أن ينيبوا عنهم أبناءهم في أداء فريضة الحج نظرا لمشاغلتهم¹⁵، وبعده ركب آخر توجه ضمنه المولى زيد العابدين ابن المولى اسماعيل وبرفقته الشيخ سيدي ادريس العراقي وأرسل معه ياقوتة عظيمة للروضة الكريمة لتعلق هناك، وعليها شباك من ذهب مرصع باليواقيت ومعلق في صندوق من ذهب سترة لها¹⁶.

ومن بين أهم الركابات الحجية ركب سنة 1143هـ/1730-1731م الذي كانت فيه والدة السلطان المولى عبد الله خنائة بنت بكار المغافية، وضم هذا الركب مجموعة من الأسماء اللامعة مثل ابن السلطان وولي عهده الأمير سيدي محمد والمولى الطاهر أخ السلطان.

خرجت الأميرة المذكورة من مدينة مكناس يوم الجمعة 11 جمادى الثانية 1143هـ/1731م متوجهة إلى البقاع المقدسة صحبة حفيدها سيدي محمد والعلماء وكبار الموظفين، وكان قائد الركب هو عبد الخالق عديل¹⁷ باعتباره المكلف الرسمي بشؤون الحج، وكان هذا القائد يجد متعة في إسداء الخدمة للناس، ثم هناك الوزير محمد الشرقي الاسحاقي صاحب الرحلة "رحلة الاسحاقي". وابن أخت الوزير الفقيه بن محمد والقاضي الفقيه بلقاسم العميري قاضي الحضرة المكناسية (1103-1178) والعربي بن محمد بصري المكناسي عالم عصره (توفي في جمادى الثانية 1148هـ/1735م)، والفقيه أحمد المكودي والشيخ أحمد المرابط الدلائي (توفي بليبيا) وبلقاسم الشولي مؤدب الأمير (توفي في الطريق إلى المدينة) والفقيه الأديب محمد بن زاكور الفاسي، والكاتب أبو عبد الله المكي الشاوي كاتب السلطان سيدي محمد بن عبد الله (فيما بعد)، وسيدات محجبات وعدد من الطلبة والخطباء والعدول والأمناء ورجال الفكر وعدد من البنائين والنجارين والحدادين والسراجين والطباخين والرواد والخبراء، وجماعة من أعتى الجنود البخاريين لحماية الركب. وزود الركب بعشرات المحطات والمراكب وما يساويها من الخيام والمطايا والأحمال من الزاد اللازم لموكب رسمي تسير على رأسه زوجة السلطان المولى اسماعيل (وأم السلطان عبد الله ابن اسماعيل وجدة السلطان سيدي أحمد بن عبد الله)، وكان هذا الركب عبارة عن مدينة متنقلة

¹⁴ محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ص. 23.

¹⁵ عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس، ص. 80.

¹⁶ محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ص. 93.

¹⁷ اقتصر اسم بيت عديل الأندلسي الأصل في بداية تاريخ الدولة العلوية بأخبار الركب الرسمي، فقد أسندت رئاسة الركب الحجازي لعدد من أفراد هذا البيت

أداة نقلها الجمال والجياد والبغال، وخلال حجة الأميرة خنائة بنت بكار كان المشرف على أمور مكة محمد بن عبد الله، لقد دون الإسحاقي تفاصيل هذا الركب من الانطلاق الى الوصول للبقاع المقدسة والعودة الى المغرب مما سنعود إليه لاحقاً.

بعث السلطان عبد الله بن اسماعيل مع والدته خنائة مائة ألف دينار لتوسع بها على اهل الحرمين الشريفين، فضلاً عن الصرة المغربية التي زاد في قيمتها زيادة كبيرة مع امتياز خاص بشرفاء الينبوع الذين كانت تخصص لهم هدايا مادية استثنائية، فقد وزعت عليهم أثناء حجة الأميرة خنائة مائتي مثقال ذهب واستقبل ركب الحاج المغربي الذي ترأسته الأميرة المذكورة بحفاوة في كل المناطق التي مر منها وخاصة بالحجاز.

ومن بين الرحلات المشهورة التي تستحق الذكر لما لها من أهمية خاصة بركب الحجيج المغربي، نذكر الرحلة العامرية لأبي عبد الله بن الحاج منصور العامري التلمساني، توفي بالمشرق في حدود 1170هـ/1756م، قام بهذه الرحلة عام 1152هـ/1739م ونظمها شعراً مبتدئاً بقوله:

أزعم السير إن دعت أدواء لشفيح الأنام فهو الدواء

ثم ذكر ما يحتاج إليه مريد الحج، وتحدث عن أداة النقل كالجمال ثم اختيار اللباس حسب الفصول¹⁸، وحذر العامري الحجاج من حمل الكثير من السلع ذات الوزن الثقيل منها والاكتفاء بأخذ أقصى ما يمكن من المال لشراء متطلبات السفر فقط، وحث على التزود بألة حرب خوفاً من اعتراض اللصوص للمسافر.

ولم تكن صلات الملوك المغاربة للحجاز مادية دائماً، بل في سنة 1155هـ/1742م سافر الركب المغربي الى الحرمين الشريفين على عهد السلطان عبد الله بن اسماعيل، فبعث معه هذا السلطان هدية نفيسة عبارة عن ثلاثة وعشرين مصحفاً متنوعاً الأحجام مرصعة بالذهب والدر والياقوت.

كان الركب الحجازي المغربي سنوياً، لكن المدة التي يتغيبها كل ركب ينطلق من فاس تقارب السنة والنصف¹⁹، وهكذا ففي سنة 1157هـ/1744م، انطلق وفد آخر برئاسة المد شقشاق نيابة عن آل عديل. تجب الإشارة أن ركب الحاج المغربي لم يكن يكتسي طابعاً دينياً فقط، ولكن أيضاً مناسبة لحركة تجارية نشيطة عبر المناطق التي يمر بها، خاصة إذا علمنا أن عدد الحجاج أحياناً عد بالآلاف، فمثلاً ركب عام

¹⁸ أورد هذه القصيدة محمد المنوني في كتابه ركب الحاج المغربي، ص 89.

¹⁹ عبد الرحمان الموزن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء 1995، ص 117.

1159هـ/1746م تطلبت حمايته مئات الفرسان إضافة الى الراجلين، "فجردوا منهم خمسمائة من الخيل (...). فخلصوا الركب الذي بها"²⁰.

وتوالى ركابات الحجاج في النصف الثاني من القرن 18م، ففي سنة 1166هـ/1752م ترأس الحاج محمد الفلوس، وهو أول من تولى هذه المهمة بعد بيت عديل، ركب الحاج المغربي، ولم يكن هذا التغيير الوحيد فقد عرفت الركابات المغربية تطورا مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، سواء من حيث التنظيم أو الصلات والهدايا خاصة وأن عهده امتاز بالمصاهرة مع الحجاز ف"بعد المولى عبد الله جاء دور ولده محمد الذي كان واسطة العقد ونادرة الزمان في هذا الميدان، فقد رتب مائة ألف مئقال في السنة لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء اليمن والحجاز، وكثيرا ما كان يضيف لهذا الراتب هدايا وافرة..."²¹، وكان ضمن ركب سنة 1768م ولدي السلطان المولى علي والمولى عبد السلام ومعها خلق كثير.

ولم يتضاءل عدد الحجاج المغاربة الى الديار المقدسة بسبب حملة نابليون على مصر سنة 1213هـ/1798م، بل يمكن الجزم بعكس ذلك ففي القرن 19م وتحديدًا في سنة 1226هـ/1811م وجه السلطان سليمان بن محمد (1792-1824) ابنه ابراهيم لأداء فريضة الحج مع الركب الفاسي حجة العلماء والأعيان والتجار والقاضي أبي العباس بن كيران والفقير الأمين بن جعفر الحسني الرتبي والقاضي محمد بن ابراهيم الزداغي، والفقير المؤقت عبد الخالق الودي وغيرهم من العلماء، وترأس هذا الركب الحاج الطالب بنجلون وكان ركبا ضخما من حيث عدد أعضائه مما جعل الشاعر الشعبي عبد الرحمان بن عبد القادر بوخريص ينبههم بكثرة الحجاج فنظم قصيدة مما جاء فيها:

ماذا من قومان جات تمشي للحج تحظر من سوس ومراكش لفرج جاو لخطر

وهل الحوز وكل من تهبأ وعرب وبربر وقبائل شلا نصيفها والطلبة الخيار²²

وهكذا كان الركب في عنفوانه في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م، يعد حجاجه بالألاف عبارة عن قافلة وجيش²³ خاصة ذلك الذي ذهب سنة 1811م وضم من أعيان فاس وتجارها وعلمائها الجم الغفير.

وعموما فإن ركب الحجاج المغاربة منذ 1830 أصابه بعض الفتور وذلك بسبب احتلال الفرنسيين للجزائر، والحرب التي دارت بين المجاهدين وقوات الاحتلال. وباتتقالنا الى القرن العشرين ولما أصبح وسط المغرب محميا من قبل فرنسا وشماله وجنوبه من طرف اسبانيا ومدينة طنجة تحت الإدارة الدولية، منذ هذا الوقت تراجع عدد الحجيج فلم يعد هناك ركب رسمي ولم ترفض الإقامة العامة الفرنسية

²⁰ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ص. 176.

²¹ محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ص. 24.

²² انظر نص القصيدة كاملا عند محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ص. 16 وما بعدها.

²³ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج. 9، ص. 71.

للموظفين المغاربة في حج بيت الله الحرام الا في 16 ذي القعدة 1352هـ موافق 1 مارس 1932 بعد صدور قرار وزير في الترخيص بطريقة استثنائية للموظفين والأعوان المسلمين للتغيب بقصد التوبة لزيارة الحرمين الشريفين²⁴.

²⁴ أحمد بن محمد الهواري، دليل الحج والسياحة، المطبعة الرسمية الرباط، الطبعة الأولى 1935، ص.13.